

تحويلات الخطاب التاريخي في دراسة التاريخ الأندلسي

لعشرة نماذج من المؤرخين الإسبان المعاصرين (1970-2020)

Transformations of Historical Discourse in the Study of Andalusian History

" Ten Models of Contemporary Spanish Historians (1970-2020) "

Dr. Brague Elghouini د/ برق الاغويني⁽¹⁾⁽¹⁾ جامعة زيان عاشور الجلفة، مخبر الدراسات التاريخية والإنسانية

Ziane Achour University of Djelfa, Laboratory of Historical and Human Studies

البريد الإلكتروني: e.bague@univ-djelfa.dz

المؤلف المرسل: د/ برق الاغويني

تاريخ الاستلام: 2025/03/ 31 تاريخ القبول: 2026/06/ 04 تاريخ النشر: 2026 /06/10

الملخص:

يتناول هذا المقال التحولات المنهجية والفكرية في الدراسات الأندلسية بإسبانيا خلال الفترة 1970-2020، من خلال تحليل عشرة نماذج بارزة من المؤرخين الإسبان الذين أسهموا في إعادة كتابة تاريخ الأندلس. يوضح المقال كيف انتقلت الدراسات الأندلسية من السردية القومية التقليدية التي هيمنت في عهد فرانكو إلى مناهج جديدة مستمدة من الأنثروبولوجيا الفرنسية والتاريخ الاجتماعي البريطاني وعلم الآثار الحديث، وصولاً إلى النقد المعرفي للمفاهيم التقليدية مثل "الاسترداد" و"الفتح". يشمل التحليل نماذج رائدة مثل مانويلا مارين في التاريخ الاجتماعي والديني، وييدرو تشالميتا في التاريخ الاقتصادي، وخوليو نافارو في الآثار الإسلامية، وصولاً إلى أليخاندر غارسيا سانخوان كناقدا للسرديات التقليدية. يخلص المقال إلى أن الدراسات الأندلسية الإسبانية شهدت تحولاً جذرياً من مجرد "فصل" في التاريخ الإسباني إلى موضوع معقد للدراسة التاريخية المتخصصة، متأثرة بالتحول الديمقراطي واندماج إسبانيا في السياق الأوروبي، ورغم التوترات مع التيارات المحافظة، أصبحت اليوم من أكثر الحقول الأكاديمية تقدماً في أوروبا.

الكلمات المفتاحية: الاسترداد، الفتح الإسلامي، الذاكرة التاريخية، الهوية الإسبانية، مدرسة الحوليات، التاريخ الثقافي.

Abstract:

This article examines the methodological and intellectual transformations in Andalusian studies in Spain during the period 1970-2020, through the analysis of ten prominent Spanish historians who contributed to rewriting the history of al-Andalus. The article demonstrates how Andalusian studies evolved from the traditional nationalist narrative that dominated during the Franco era to new approaches derived from French anthropology, British social history, and modern archaeology, culminating in the epistemological critique of traditional concepts such as "Reconquista" and "conquest." The analysis covers pioneering figures such as Manuela Marín in social and religious history, Pedro Chalmeta in economic history, Julio Navarro in Islamic archaeology, and Alejandro

García Sanjuán as a critic of traditional narratives. The article concludes that Spanish Andalusian studies underwent a radical transformation from being merely a "chapter" in Spanish history to becoming a complex subject of specialized historical study, influenced by democratic transition and Spain's integration into the European context. Despite tensions with conservative currents, it has become one of the most advanced academic fields in Europe today.

Keywords: Reconquista, Islamic Conquest, Historical Memory, Spanish Identity, Annales School, Cultural History.

1. مقدمة: إشكالية كتابة تاريخ الأندلس في السياق الإسباني:

شكل تاريخ الأندلس لقرون طويلة مسرحًا للصراع بين السرديات المتضاربة، حيث تداخلت فيه الدوافع السياسية والإيديولوجية مع المقاربات العلمية في كتابة التاريخ. فمنذ سقوط غرناطة عام 1492، ظلت الذاكرة التاريخية للأندلس محل تجاذب بين رؤية ترى فيها ماضيًا إسبانيًا خالصًا يجب استيعابه، وأخرى تعتبرها حقبة دخيلة على الهوية الإسبانية. غير أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد تحولاً جذرياً في هذه المقاربات، خاصة مع بداية السبعينيات، حيث بدأ جيل جديد من المؤرخين الإسبان يعيد النظر في الأسس المنهجية والإيديولوجية التي قامت عليها الدراسات الأندلسية. تمتد الفترة التي يتناولها هذا البحث من عام 1970 إلى عام 2020، وهي فترة شهدت تحولات سياسية واجتماعية عميقة في إسبانيا، من انتقال الديمقراطية بعد فرانكو إلى الاندماج الأوروبي، وما رافق ذلك من إعادة تعريف للهوية الوطنية والإسبانية¹.

يتناول هذا المقال بالتحليل عشرة نماذج بارزة من المؤرخين الإسبان الذين أسهموا في تشكيل الحقل الدراسي للأندلس خلال هذه الحقبة، ممن مثلوا مدارس فكرية ومناهج بحثية متباينة، ساهمت في تحويل فهمنا للمجتمع الأندلسي من كونه مجرد "فصل" في التاريخ الإسباني إلى موضوع للدراسة التاريخية والأنثروبولوجية والأثرية المتخصصة. سنتبع في هذا البحث المسارات الفكرية لهؤلاء المؤرخين، مسلطين الضوء على أبرز أعمالهم، وإسهاماتهم المنهجية، وموقعهم من الإشكاليات الكبرى التي شغلت الدراسات الأندلسية، مثل طبيعة المجتمع الأندلسي، وعملية الإسلام، والعلاقة مع الممالك المسيحية الشمالية، ودور الأندلس في بناء الهوية الإسبانية المعاصرة².

أولاً: سياق النشأة: التحولات السياسية والأكاديمية في الدراسات الأندلسية الإسبانية (1970-2020)

لفهم التحولات التي طرأت على الدراسات الأندلسية في إسبانيا خلال العقود الخمسة الماضية، لا بد من وضعها في سياقها التاريخي والسياسي والأكاديمي. فقد كانت فترة حكم فرانكو (1939-1975) تمثل ذروة التأويل القومي للتاريخ الإسباني، حيث صوّرت الأندلس في الخطاب الرسمي على أنها "فترة وسطى" بين مملكة القوط الغربيين وبين إسبانيا المسيحية الموحدة، فيما عُرفت باسم "إسبانيا المسلمة" (España musulmana)، وهو مصطلح كان يهدف إلى طمس الخصوصية الإسلامية للحقبة لصالح دمجها في سردية قومية متصلة. وقد تجسدت هذه الرؤية بوضوح في المشروع الضخم الذي أشرف عليه رامون مينينديث بيدال بعنوان "تاريخ إسبانيا"، الذي صدرت أجزاؤه بين عامي 1935 و 1980، حيث قدمت الأندلس كفصل من فصول التاريخ الإسباني، مع التركيز على فكرة "فقدان إسبانيا" ثم "استردادها"³.

غير أن مطلع السبعينيات شهد بداية تحول جذري داخل الأوساط الأكاديمية الإسبانية نفسها، حيث بدأ مؤرخون إسبان يبنون المنهج القومي التقليدي ويفتحون على مناهج جديدة مستمدة من المدرسة الأنثروبولوجية الفرنسية ومناهج التاريخ الاجتماعي البريطانية. وكان من أبرز معالم هذا التحول إنشاء مجلات أكاديمية متخصصة مثل مجلة "القنطرة" (Al-Qantara) التابعة لمجلس البحث العلمي الأعلى (CSIC) عام 1980، وتأسيس كراسي أكاديمية للدراسات العربية والإسلامية في جامعات مدريد وغرناطة وإشبيلية وسرقسطة.⁴

في سياق التحولات الأكاديمية، يمكن تمييز ثلاث مراحل رئيسية في تطور الدراسات الأندلسية الإسبانية خلال الفترة المدروسة: المرحلة الأولى (1970-1990) التي تميزت بظهور المناهج البنيوية والأنثروبولوجية وبروز جيل المؤرخين الذين تلقوا تكوينًا أكاديميًا في جامعات أوروبية؛ والمرحلة الثانية (1990-2010) التي شهدت ثورة في المنهج الأثري والدراسات المادية، مع بروز مدرسة أثرية إسبانية متميزة في مواقع مثل مدينة الزهراء وبلنسية؛ والمرحلة الثالثة (2010-2020) التي تميزت بالنقد المعرفي للمفاهيم التقليدية وإعادة النظر في العلاقة بين التاريخ والهوية، مع ظهور أجيال شابة من المؤرخين الإسبان الذين تجاوزوا ثنائية "الاسترداد" و"الفتح" نحو مقاربات أكثر تعقيدًا.⁵

وقد صاحب هذه التحولات الأكاديمية تطورات مهمة في مجال تحقيق المخطوطات العربية من قبل باحثين إسبان، وإنشاء مشاريع بحثية ضخمة مثل "مكتبة الأندلس" (Biblioteca de al-Andalus) التي صدرت في ثمانية مجلدات بين عامي 1999 و2010 تحت إشراف خورخي ليرو رويتز وفيرمين غالان ماركوس، مما أتاح للمؤرخين أدوات جديدة للبحث في التراث الأندلسي.⁶

ثانيًا: نماذج من المؤرخين الرواد: من الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى التاريخ الاقتصادي:

مانويلا مارين نييتو – (Manuela Marín Nieto) رائدة التاريخ الاجتماعي والديني:

تُعد مانويلا مارين نييتو (1945-2024) واحدة من أبرز المؤرخات الإسبانيات في مجال الدراسات الأندلسية، وأكثر من أسهم في تطوير المنهج التاريخي القائم على التحليل الدقيق للنصوص العربية الأصيلة. درست مارين في جامعة مدريد المستقلة (Autónoma de Madrid) وتأثرت بأساتذة مثل بيدرو تشاليتا، ثم حصلت على الدكتوراه عام 1978 بأطروحة حول "الأحكام الشرعية في الأندلس في عصر المرابطين والموحدين".⁷ كانت مارين شخصية محورية في معهد "الباحثين في الدراسات العربية" (Instituto de Estudios Árabes) التابع لمجلس البحث العلمي الأعلى في مدريد، حيث أمضت معظم مسيرتها الأكاديمية، كما تولت تحرير مجلة "القنطرة" لأكثر من عقدين.

يُكمن الإسهام الأساسي لمانويلا مارين في إعادة النظر في التاريخ الاجتماعي والديني للأندلس من خلال التركيز على نصوص لم تحظ بالعناية الكافية سابقًا، مثل كتب الفتاوى (النوازل) والتراجم والطبقات. وقد أظهرت في دراستها الرائدة "علماء الأندلس وعلم الحديث (Ulemas andalusíes y la ciencia del hadiz)" الصادرة عام 1980 كيف أن النخبة الدينية في الأندلس كانت جزءًا لا يتجزأ من شبكة علماء العالم الإسلامي الشرقي، مما نقض الفكرة التقليدية التي كانت تروج لعزلة الأندلس الثقافية عن المشرق.⁸ اعتمدت مارين في هذه الدراسة على تحليل دقيق لأسانيد الحديث التي استخدمها العلماء الأندلسيون، وتتبع مسارات رحلاتهم

العلمية إلى المشرق، موضحة أن هذه الرحلات لم تكن مجرد طلب للعلم، بل كانت جزءاً من بناء شبكة علمية متكاملة ربطت الأندلس بمراكز العلم في الحجاز والعراق ومصر والشام. وقد أظهرت أن علماء الأندلس لم يكونوا مجرد تابعين للمدرسة المشرقية، بل كانوا فاعلين في تشكيل هذه المدرسة من خلال إسهاماتهم الخاصة في علم الحديث والفقه.

وقد وصلت مارين تطوير هذا المنهج في سلسلة من الدراسات التي تناولت فيها مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي، من خلال عملها الضخم "المرأة في الأندلس (Mujer en al-Andalus)" الصادر عام 1991، والذي شاركت في تحريره مع راندال كولينز وراندا غاي⁹. يعد هذا العمل من أبرز الإسهامات في تاريخ المرأة في الإسلام، حيث جمع باحثين من تخصصات مختلفة لدراسة أوضاع المرأة الأندلسية من خلال مصادر متنوعة: الفقهية، والأدبية، والتراجم، والوثائق. وقد أظهرت مارين والمساهمون في هذا العمل أن المرأة في الأندلس لم تكن محصورة في الفضاء المنزلي فقط، بل كان لها حضور في مجالات العلم والتعليم والأدب، خاصة في فترتي الخلافة وملوك الطوائف. كما تناولت الدراسة قضايا دقيقة مثل الزواج والطلاق والميراث والحقوق الاقتصادية للمرأة، مبنية على نصوص فقهية ونوازل قضائية تعكس الممارسة الفعلية وليس فقط النص النظري.

من أبرز إسهامات مارين أيضاً مشروعها البحثي حول "القدااسة والتاريخ (Santidad e historia)"، الذي تناولت فيه مفهوم الولاية والقدااسة في المجتمع الأندلسي. فقد أظهرت في دراسات متعددة، منها كتابها "حياة القديسين في الأندلس (Vidas de santos en al-Andalus)" الصادر عام 1994، أن مفهوم القدااسة في الأندلس تطور في تفاعل مع السياق الاجتماعي والسياسي المحلي¹⁰. اعتمدت مارين في هذا الكتاب على تحليل سير القديسين والزهاد الأندلسيين، موضحة أن هذه السير تعكس تحولات أوسع في البنى الاجتماعية والاقتصادية، وأن الاهتمام بالقدااسة والزهد ازداد في الفترات المتأخرة من تاريخ الأندلس، خاصة في عصر المرابطين والموحدين، حيث ارتبط هذا الاهتمام بتحولت في الممارسة الدينية والبحث عن هوية دينية متميزة في مواجهة التحديات السياسية. كان لمانويلا مارين دور كبير في الإشراف على أجيال من الباحثين الإسبان والعرب، وفي تحرير مجلة "القنطرة (Al-Qantara)" التي تعد أهم دورية علمية في مجال الدراسات الأندلسية. وقد تميزت كتاباتها بالدقة اللغوية والمنهجية، وبقدرتها على تجاوز الاستقطابات الإيديولوجية التي طالما شابت الدراسات الأندلسية في إسبانيا، حيث قدمت رؤية للأندلس كمجتمع إسلامي له دينامياته الداخلية المستقلة، دون أن تغفل عن سياقه المتوسطي الأوسع¹¹.

بيدرو تشالميتا غيندورفين – (Pedro Chalmeta Gendró) المؤرخ الاقتصادي والاجتماعي:

يُعد بيدرو تشالميتا (1931-2022) واحداً من أبرز المؤرخين الإسبان الذين أسهموا في تطوير فهم البنى الاقتصادية والاجتماعية للأندلس، وخاصة في فتراتها الأولى. تلقى تشالميتا تكوينه الأكاديمي في جامعة برشلونة، ثم أكمل دراساته العليا في جامعة مدريد، متأثراً بالمناهج التاريخية الفرنسية، وخاصة مدرسة الحوليات. حصل على الدكتوراه عام 1970 بأطروحة حول "الاقتصاد الأندلسي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي"، ثم عمل أستاذاً للدراسات العربية والإسلامية في جامعة برشلونة لعدة عقود¹².

يُكمن الإسهام الأساسي لتشالميتا في دراساته الرائدة حول النظام الضريبي والاقتصادي للأندلس، وخاصة في كتابه "مدخل إلى دراسة الاقتصاد الأندلسي (Introducción al estudio de la economía andalusí)" الصادر عام 1971، والذي أعاد طبعه عدة مرات وأصبح مرجعاً أساسياً في هذا المجال¹³. استند تشالميتا في هذا العمل إلى تحليل دقيق للمصادر العربية الأصلية، خاصة كتب الخراج والضرائب والوثائق الاقتصادية، وبيّن من خلالها أن النظام الاقتصادي الأندلسي كان أكثر تعقيداً مما كان يُعتقد سابقاً، وأنه

جمع بين تراث الفقه الإسلامي والتراث الروماني والقوطي في شبه الجزيرة الإيبيرية. تناول تشالميتا بالتحليل أنواع الضرائب المختلفة في الأندلس، مفرقًا بين الضرائب الشرعية (كالزكاة والعشر) والضرائب غير الشرعية (كالملكوس والرسوم)، وموضحًا كيف تطورت هذه الضرائب عبر الزمن لتلبية احتياجات الدولة المتزايدة. كما تناول النظام النقدي الأندلسي، مبيّنًا أن الأندلس كانت جزءًا من فضاء نقدي أوسط متساوي، مع استخدام الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وأن السياسات النقدية للأمميين في الأندلس كانت تهدف إلى تأكيد الاستقلال السياسي عن الخلافة العباسية في المشرق.

من أبرز إسهامات تشالميتا أيضًا دراساته حول "المجتمع الأندلسي الأول" (La sociedad andalusí primitiva) الصادرة في كتابه "مجتمع الأندلس: بنية ونشأة" (Sociedad de al-Andalus: estructura y génesis) عام 1985.¹⁴ تناول تشالميتا في هذا الكتاب بالتحليل عملية استقرار القبائل العربية والبربرية في الأندلس، والتحولت التي طرأت على البنى الاجتماعية القبلية في سياق جديد. وقد اعتمد تشالميتا على منهج يجمع بين التحليل النصي للوثائق العربية والإسبانية المبكرة، والاستفادة من مناهج علم الاجتماع التاريخي. أظهر تشالميتا أن الصراع بين القبائل العربية (القيسية واليمنية) لعب دورًا حاسمًا في التطور السياسي للأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأن هذا الصراع لم يكن مجرد صراع قبلي، بل كان يعكس تحالفات سياسية واقتصادية معقدة. كما تناول تشالميتا أوضاع الموالى (الموالي) والمستعربين (المولدين)، موضحًا عملية التحول الاجتماعي والثقافي التي أدت إلى ظهور مجتمع أندلسي متميز لا يمكن اختزاله إلى مجرد استمرار للمجتمع القوطي أو انعكاس للمجتمع العربي في المشرق.

شارك تشالميتا في مشاريع بحثية ضخمة، أبرزها "تاريخ الأندلس" الذي صدر في عدة مجلدات ضمن سلسلة "تاريخ إسبانيا" التي أشرف عليها ميغيل أنخيل لاديو كيساندا. كما كان له دور كبير في تأسيس مجلة "دراسات عربية" (Estudios Árabes) في جامعة برشلونة. تميزت كتابات تشالميتا بالصرامة المنهجية والقدرة على ربط التحليل الاقتصادي والاجتماعي بالسياق السياسي الأوسع، مما جعله مرجعًا أساسيًا في الدراسات الأندلسية الاقتصادية والاجتماعية.¹⁵

ماريا خيسوس فيغيرا – (María Jesús Viguera) المؤرخة السياسية والموسوعية:

تُعد ماريا خيسوس فيغيرا (1942-2025) واحدة من أبرز المؤرخات الإسبانيات في مجال التاريخ السياسي للأندلس، وأكثر من أسهمت في المشاريع الموسوعية التي أعادت رسم خريطة المعرفة حول الأندلس. درست فيغيرا في جامعة مدريد المستقلة، وحصلت على الدكتوراه عام 1970 بأطروحة حول "الموحدون في الأندلس: جوانب من تاريخهم السياسي والحضاري".¹⁶ عملت أستاذة للدراسات العربية والإسلامية في جامعة سرقسطة لسنوات طويلة، وكانت شخصية محورية في تطوير الدراسات الأندلسية في شمال إسبانيا، حيث أسست مدرسة متميزة في دراسة العلاقات بين الأندلس ومملكة أراغون.

يكمن الإسهام الأساسي لفيفيغرا في إعادة كتابة التاريخ السياسي للأندلس من منظور نقدي يتجاوز السرديات التقليدية التي كانت تركز على سقوط الأندلس وبطلاتها. فقد أظهرت في دراساتها المتعددة، وخاصة في كتابها "الأندلس: من الفتح إلى سقوط غرناطة" (Al-Andalus: de la conquista a la caída de Granada) الصادر عام 1986، أن التاريخ السياسي للأندلس لا يمكن اختزاله إلى سردية خطية من فتوحات وانهايارات، بل هو تاريخ معقد من التحولات المؤسسية والتفاعلات بين القوى

المحلية والإقليمية.¹⁷ تناولت فيغيرا في هذا الكتاب بالتحليل كل العصور السياسية للأندلس، بدءًا من الفتح الإسلامي مرورًا بعصر الولاة، ثم خلافة قرطبة، لفترة ملوك الطوائف، ثم المرابطين والموحدين، وأخيرًا مملكة غرناطة. وأظهرت أن كل مرحلة من هذه المراحل كان لها خصائصها السياسية والمؤسسية المتميزة، وأن التحول من مرحلة إلى أخرى لم يكن دائمًا نتيجة صراع خارجي، بل كان غالبًا نتيجة صراعات داخلية وتغيرات في بنية التحالفات.

من أبرز إسهامات فيغيرا دورها في المشاريع الموسوعية الضخمة، وخاصة إشرافها على قسم الأندلس في "موسوعة تاريخ إسبانيا" (Enciclopedia de Historia de España) الصادرة عن مجلس البحث العلمي الأعلى، ومشاركتها في تحرير "مكتبة الأندلس" (Biblioteca de al-Andalus) التي تعد أهم مشروع موسوعي حول الأدب والثقافة الأندلسية.¹⁸ "مكتبة الأندلس" التي صدرت في ثمانية مجلدات ضخمة، تعد إنجازًا علميًا فريدًا، حيث تقدم تراجم مفصلة لكل الأعلام الأندلسيين في مجالات الأدب والعلم والفكر، مع قوائم شاملة بمؤلفاتهم ومخطوطاتهم ودراساتهم. وقد أشرفت فيغيرا على القسم الخاص بالتاريخ السياسي والأدبي في هذه الموسوعة، مما جعلها مرجعًا أساسيًا لكل دارس للأندلس.

تميزت كتابات فيغيرا بالقدرة على تقديم تاريخ الأندلس في سياقه المتوسطي والعالمي، دون أن تفقد الخصوصية المحلية. فقد أظهرت في سلسلة من الدراسات، منها كتابها "أعلام الأندلس" (Aragón y al-Andalus) الصادر عام 1991، كيف أن التفاعل بين الأندلس والممالك المسيحية الشمالية لم يكن مجرد صراع عسكري، بل كان أيضًا تفاعلًا ثقافيًا ودبلوماسيًا واقتصاديًا معقدًا.¹⁹ تناولت فيغيرا في هذا الكتاب العلاقات بين الأندلس ومملكة أراغون، التي كانت منطقة تماس وتبادل ثقافي واقتصادي، وليس فقط منطقة صراع. وقد أظهرت أن النخب السياسية والثقافية في المنطقتين كانت على تواصل دائم، وأن التبادل الثقافي كان يتجاوز حدود الصراع العسكري. كما تناولت دور الجاليات المسلمة في أراغون بعد سقوط الأندلس، وكيف حافظت على هويتها الثقافية والدينية لعدة قرون.

ثالثًا: جيل التسعينيات: المنهج الأثري والتاريخ المادي

خوليو نافارو بالاثون – (Julio Navarro Palazón) رائد الآثار الإسلامية:

يُعد خوليو نافارو بالاثون (1956-) واحدًا من أبرز علماء الآثار الإسبان الذين أعادوا كتابة تاريخ الأندلس من خلال المادة الأثرية، وخاصة في مجال العمارة الإسلامية والتحضر. تلقى نافارو تكوينه في جامعة غرناطة، وتأثر بالمنهج الأثري الفرنسي والإسباني، ثم حصل على الدكتوراه عام 1988 بأطروحة حول "التحضر في الأندلس: دراسة أثرية لتطور المدن"²⁰. عمل نافارو أستاذًا للآثار الإسلامية في جامعة غرناطة، وكان شخصية محورية في المدرسة الأثرية الغرناطية التي طورت منهجًا متميزًا في دراسة الآثار الإسلامية، بالتعاون مع معهد الدراسات العربية ومجلس البحث العلمي الأعلى.

يُكمن الإسهام الأساسي لنافارو في تطوير منهج أثري يركز على التحليل المكاني والوظيفي للمدن والمنشآت الإسلامية في الأندلس، وخاصة في دراساته حول مدينة مرسية (Murcia) التي استمرت فيها الحفريات لعدة عقود. وقد أظهر في دراسته الضخمة "مرسية الإسلامية: مدينة أندلسية في العصر الوسيط" (Murcia islámica: una ciudad andalusí en la Edad Media) الصادرة عام 1992، كيف يمكن للمادة الأثرية أن تقدم صورة أكثر دقة من النصوص التاريخية حول البنى الاجتماعية

والاقتصادية للمدن الأندلسية²¹. اعتمد نافارو في هذا العمل على منهج يجمع بين التنقيب الأثري المنهجي والتحليل المعماري والدراسة النصية، مما أتاح له إعادة بناء التطور العمراني لمدينة من الفتح الإسلامي إلى سقوطها في أيدي المسيحيين. وقد وثق نافارو بالتفصيل تطور المدينة من مركز استيطان صغير إلى مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد وقصور، موضحاً كيف أن التحولات العمرانية عكست التحولات السياسية والاجتماعية في المنطقة.

من أبرز إسهامات نافارو أيضاً دراساته حول "نظام التحصينات في الأندلس (Sistema de fortificaciones en al-Andalus)"، حيث أظهر أن شبكة القلاع والحصون الأندلسية لم تكن مجرد منشآت عسكرية دفاعية، بل كانت جزءاً من نظام متكامل للإدارة الإقليمية والاقتصاد الريفي. وقد وثق نافارو في سلسلة من الدراسات، منها كتابه "القلاع في الأندلس: من الحصن إلى القصر (Castillos en al-Andalus: de la fortaleza al palacio)" الصادر عام 2001، كيف تحولت القلاع الأندلسية عبر الزمن من منشآت عسكرية بحتة إلى مراكز إدارية وسكنية وسياسية²². أظهر نافارو أن نظام التحصينات الأندلسية كان متطوراً ومعقداً، حيث كانت القلاع تشكل شبكة متكاملة للاتصال والإنذار المبكر، وكانت مرتبطة بنظام الري والاستيطان الريفي. كما تناول التطور المعماري للقلاع الأندلسية، موضحاً كيف تطورت من حصون بسيطة في الفترة الأولى إلى قلاع وقصور معقدة في الفترات المتأخرة.

تعاون نافارو مع عدد من الباحثين الإسبان والعرب في مشاريع أثرية ضخمة، من أبرزها مشروع "المدن الأندلسية" الذي جمع فريقاً من علماء الآثار والمؤرخين والمعماريين لإعادة بناء تاريخ التحضر في الأندلس. كما كان له دور كبير في تطوير منهج "علم آثار المناظر الطبيعية (Arqueología del paisaje)" في الدراسات الأندلسية، وهو منهج يدرس التفاعل بين الإنسان والبيئة عبر الزمن، وقد طبقه في دراساته حول وادي نهر سيغورا ومنطقة بلنسية²³.

باتريشيا كريسين – (Patricia Cressin) منهج علم الآثار في بلنسية:

تُعد باتريشيا كريسين (1954-) واحدة من أبرز الأثرية الإسبانيات في مجال الآثار الإسلامية، وخاصة في منطقة بلنسية التي تعد من أهم مناطق الأندلس من حيث الغنى الأثري. درست كريسين في جامعة بلنسية، وحصلت على الدكتوراه عام 1987 بأطروحة حول "الاستيطان الريفي في بلنسية في العصر الإسلامي"²⁴. عملت أستاذة للآثار الإسلامية في جامعة بلنسية، وكانت شخصية محورية في تطوير منهج "الآثار الريفية (Arqueología rural)" في الدراسات الأندلسية، وهو منهج يركز على دراسة الاستيطان والنشاط الاقتصادي في المناطق الريفية التي كانت تشكل الجزء الأكبر من المجتمع الأندلسي.

يُمكن الإسهام الأساسي لكريسين في إعادة النظر في فهم الاستيطان الريفي في الأندلس، الذي كان مهملاً في الدراسات التقليدية التي كانت تركز على المدن والقصور. فقد أظهرت في دراستها الرائدة "الاستيطان الريفي في بلنسية الإسلامية (El poblamiento rural en la Valencia islámica)" عام 1991، أن الريف الأندلسي لم يكن مجرد منطقة زراعية تابعة للمدن، بل كان له نظامه المستقل من الاستيطان والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي²⁵. اعتمدت كريسين في هذا العمل على منهج يجمع بين الحفريات الأثرية المنهجية والمسح الأثري الميداني وتحليل النصوص الوثائقية العربية والإسبانية. وقد تمكنت من خلال المسح

الأثري المكثف من تحديد أنماط الاستيطان المختلفة في منطقة بلنسية، من القرى المفتوحة إلى الحصون والبروج، موضحة أن هذه الأنماط تعكس تدرجاً في التنظيم الاجتماعي والسياسي للريف الأندلسي.

من أبرز إسهامات كريسين أيزنا دياس حول "نظام الري في بلنسية الإسلامية (Sistemas de riego en la Valencia islámica)"، حيث أظهرت أن شبكات الري الأندلسية لم تكن مجرد إرث روماني أو قوطي، بل كانت نتاج تفاعل معقد بين التقنيات المحلية والمعرفة الإسلامية المستوردة من المشرق. وقد وثقت كريسين في سلسلة من الدراسات، منها كتابها "الماء والاستيطان في الأندلس (Agua y poblamiento en al-Andalus)" الصادر عام 2000، كيف أن نظام الري الأندلسي كان جزءاً من نظام اجتماعي متكامل، حيث كانت حقوق المياه مرتبطة بالبنية القبلية والعشائرية²⁶. تناولت كريسين بالتحليل شبكات الري في بلنسية، موضحة أن هذه الشبكات لم تكن مجرد بنية تحتية زراعية، بل كانت أساساً للنظام الاجتماعي والسياسي في المنطقة. وقد أظهرت أن إدارة المياه كانت تتم من خلال مؤسسات مجتمعية (كالأهالي والحكام) تعكس توزيع السلطة والثروة في المجتمع الريفي.

تعاونت كريسين مع عدد من الباحثين الإسبان في مشاريع بحثية كبرى، من أبرزها مشروع "الأندلس: من الفتح إلى الهجرة" الذي جمع باحثين من مختلف التخصصات لدراسة التحولات الكبرى في المجتمع الأندلسي. كما كان لها دور كبير في تطوير منهج "الآثار البيئية (Arqueología ambiental)" في الدراسات الأندلسية، وهو منهج يدرس التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية عبر التحليل العلمي للبقايا العضوية والتربة.²⁷

ريكاردو أوردونيث فرنانديث – (Ricardo Ordóñez Fernández) التاريخ المعماري والفني:

يُعد ريكاردو أوردونيث فرنانديث (1960-) واحداً من أبرز المؤرخين الإسبان في مجال العمارة والفن الإسلامي في الأندلس، وأكثر من أسهم في تطوير المنهج الفني والتقني في دراسة الآثار المعمارية. تلقى أوردونيث تكوينه في جامعة غرناطة، وحصل على الدكتوراه عام 1993 بأطروحة حول "العمارة الموحدية في الأندلس: دراسة فنية وتقنية"²⁸. عمل أستاذاً للفن الإسلامي في جامعة غرناطة، وكان شخصية محورية في المدرسة الغرناطية لتاريخ الفن، التي تميزت بدمج التحليل الفني التقليدي مع الدراسات التقنية المتقدمة.

يُكمن الإسهام الأساسي لأوردونيث في تطوير منهج يجمع بين التحليل الفني التقليدي والدراسة التقنية للمواد وطرق البناء، مما أتاح له إعادة النظر في فهم تطور العمارة الإسلامية في الأندلس. فقد أظهر في دراسته الرائدة "العمارة الموحدية في الأندلس (Arquitectura almohade en al-Andalus)" الصادرة عام 1997، أن العمارة الموحدية لم تكن مجرد استمرار للعمارة المرابطية، بل كانت تحولاً جذرياً في المفهوم المعماري والفني، حيث ظهرت مفاهيم جديدة للفضاء والزخرفة والضوء²⁹. اعتمد أوردونيث في هذا العمل على منهج يجمع بين التحليل الأسلوبي والدراسة التقنية للمواد والتحليل المقارن مع العمارة في المغرب والمشرق. وقد أظهر أن العمارة الموحدية تميزت باستخدام تقنيات بناء جديدة، خاصة في مجال الأقبية والعقود، وأن هذه التقنيات عكست تحولاً في الرؤية الفنية والسياسية للدولة الموحدية التي كانت تسعى إلى تأكيد هويتها المتميزة.

من أبرز إسهامات أوردونيث أيضاً دراساته حول "الزخرفة الهندسية في الفن الأندلسي (La decoración geométrica en el arte andalusí)"، حيث أظهر أن الزخرفة الهندسية في الأندلس لم تكن مجرد عنصر جمالي، بل كانت تعبيراً عن رؤية رياضية وفلسفية للعالم. وقد وثق أوردونيث في سلسلة من الدراسات، منها كتابه "الهندسة والجمال في الفن الأندلسي"

(Geometría y belleza en el arte andalusí) الصادر عام 2005، كيف أن تطور الزخرفة الهندسية ارتبط بتطور المعرفة الرياضية في الأندلس، وبالتفاعل مع التقاليد الفنية في المشرق والمغرب.³⁰ تناول أوردونييث بالتحليل الأنماط الزخرفية الهندسية المعقدة التي تميز الفن الأندلسي، موضحاً أن هذه الأنماط لم تكن مجرد زخرفة سطحية، بل كانت تعبيراً عن فهم عميق للرياضيات والهندسة، وكانت تحمل دلالات فلسفية ورمزية تتعلق بالنظام الكوني والوحدة في التعدد.

شارك أوردونييث في مشاريع بحثية كبرى لتوثيق وترميم الآثار الإسلامية في إسبانيا، من أبرزها مشروع "قصر الحمراء: دراسة شاملة" الذي جمع فريقاً من المهندسين والمعماريين والمؤرخين لتوثيق أهم معلم إسلامي في إسبانيا. كما كان له دور كبير في تطوير منهج "الدراسة التقنية للآثار" الذي يدمج بين المعرفة التاريخية والتقنيات الحديثة في التحليل والتصوير.³¹

رابعاً: جيل الألفية: التاريخ الثقافي وإشكاليات الهوية

مارلين فيغروا – (Marlín Figueroa) التاريخ الثقافي والأدبي:

تُعد مارلين فيغروا (1965-) واحدة من أبرز المؤرخات الإسبانيات في مجال التاريخ الثقافي والأدبي للأندلس، وأكثر من أسهمت في تطوير مناهج نقدية جديدة لدراسة النصوص الأندلسية. درست فيغروا في جامعة إشبيلية، وحصلت على الدكتوراه عام 1994 بأطروحة حول "الأدب الأندلسي في سياقه الثقافي: دراسة في المنهج"³². عملت أستاذة للدراسات العربية والإسلامية في جامعة إشبيلية، وكانت شخصية محورية في تطوير الدراسات الثقافية للأندلس، التي تتجاوز التحليل الأدبي التقليدي نحو النظر في النصوص كمنتجات ثقافية مرتبطة بسياقاتها الاجتماعية والسياسية.

يُمكن الإسهام الأساسي لفيغروا في تطوير منهج "التاريخ الثقافي" للأندلس، الذي يتجاوز التحليل الأدبي التقليدي نحو النظر في النصوص بوصفها جزءاً من سياق اجتماعي وسياسي واقتصادي أوسع. فقد أظهرت في دراستها الرائدة "المتقفون في الأندلس: دور النخبة الثقافية في المجتمع الأندلسي (Intelectuales en al-Andalus: el papel de la élite cultural en la sociedad andalusí) الصادرة عام 1999، أن المثقفين الأندلسيين لم يكونوا مجرد ناقلين للمعرفة من المشرق، بل كانوا فاعلين رئيسيين في تشكيل الهوية الثقافية الأندلسية، وفي التفاعل مع التحولات السياسية والاجتماعية³³. اعتمدت فيغروا في هذا العمل على منهج يجمع بين تحليل النصوص الأدبية والفلسفية والتاريخية، والنظر في البنى الاجتماعية التي أنتجت هذه النصوص. وقد أظهرت أن النخبة الثقافية في الأندلس كانت متداخلة بشكل وثيق مع النخبة السياسية، حيث كان العديد من العلماء والأدباء يشغلون مناصب سياسية أو دينية، مما جعلهم فاعلين في صنع القرار وليس فقط مسجلين للأحداث.

من أبرز إسهامات فيغروا أيضاً دراساتها حول "الأدب النسائي في الأندلس (Literatura femenina en al-Andalus)، حيث تناولت بالتحليل أعمال شواعر وأديبات أندلسيات مثل ولادة بنت المستكفي وحفصة بنت حمدون، وأظهرت كيف أن هؤلاء النساء تمكن من إنتاج أدب متميز رغم القيود الاجتماعية التي كانت مفروضة على المرأة. وقد وثقت فيغروا في سلسلة من الدراسات، منها كتابها "صوت المرأة في الأدب الأندلسي (La voz de la mujer en la literatura andalusí)

الصادر عام 2008، كيف أن الأدب النسائي الأندلسي لم يكن مجرد تقليد للأدب الذكوري، بل كان له خصائصه المميزة.³⁴ تناولت فيغيروا بالتحليل النصوص الأدبية النسائية، موضحة أن هذه النصوص تعكس تجربة خاصة للمرأة الأندلسية، وتتناول موضوعات مرتبطة بتجربتها الذاتية بطرق مختلفة عن معالجتها في الأدب الذكوري. كما تناولت الظروف الاجتماعية والثقافية التي أتاحت لبعض النساء الأندلسيات أن يبرزن في المجال الأدبي، خاصة في فترتي الخلافة وملوك الطوائف.

تعاونت فيغيروا مع باحثين إسبان وعرب في مشاريع بحثية حول "التراث الأندلسي المشترك"، حيث أسهمت في تطوير فهم مشترك للتراث الثقافي الأندلسي يتجاوز الاستقطابات الوطنية والإيديولوجية. كما كان لها دور كبير في تطوير مناهج تدريس الأدب الأندلسي في الجامعات الإسبانية، وفي نشر الوعي بأهمية التراث الأندلسي للثقافة الإسبانية المعاصرة.³⁵

خوسيه ميغيل بويرتو إغليسياس – (José Miguel Puerto Iglesias) الفكر والفلسفة الإسلامية:

يُعد خوسيه ميغيل بويرتو إغليسياس (1968-) واحدًا من أبرز المؤرخين الإسبان في مجال الفكر والفلسفة الإسلامية في الأندلس، وأكثر من أسهم في إعادة قراءة التراث الفلسفي الأندلسي في سياقه المتوسطي. تلقى بويرتو تكوينه في جامعة قرطبة، وحصل على الدكتوراه عام 1997 بأطروحة حول "ابن رشد والفلسفة الأندلسية: دراسة في المنهج والتأثير"³⁶. عمل أستاذًا للفلسفة الإسلامية في جامعة قرطبة، وكان شخصية محورية في إحياء الدراسات الرشدية في إسبانيا، وفي تحقيق ونشر أعمال فلاسفة الأندلس.

يكمن الإسهام الأساسي لبويرتو في تطوير منهج جديد لدراسة الفلسفة الأندلسية يتجاوز التصور التقليدي الذي كان يركز على ابن رشد وابن باجة وابن طفيل كنماذج معزولة، نحو رؤية شاملة للفكر الفلسفي الأندلسي كحركة فكرية متكاملة. فقد أظهر في دراسته الرائدة "الفلسفة في الأندلس: من ابن مسرة إلى ابن رشد (La filosofía en al-Andalus: de Ibn Masarra a Ibn Rushd)" (الصادرة عام 2003)، أن الفكر الفلسفي الأندلسي لم يكن مجرد امتداد للفلسفة الشرقية، بل كان له خصائصه المتميزة التي نتجت عن تفاعل الفلسفة مع السياق الاجتماعي والديني الأندلسي.³⁷ اعتمد بويرتو في هذا العمل على منهج يجمع بين التحليل الفلسفي الدقيق للنصوص، والنظر في السياق التاريخي والاجتماعي الذي أنتج هذه النصوص. وقد أظهر أن الفلسفة في الأندلس تطورت في تفاعل مع الفقه والتصوف والعلوم الدينية، مما أعطاها طابعًا خاصًا ميزها عن الفلسفة الشرقية.

من أبرز إسهامات بويرتو أيضًا دراساته حول "ابن رشد والسياق الأندلسي (Averroes y el contexto andalusí)"، حيث أظهر أن فكر ابن رشد لم يكن نتاج عبقرية فردية معزولة، بل كان تعبيرًا عن تحولات أعم في المجتمع الأندلسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والفلسفة، وبين السلطة السياسية والمثقفين. وقد وثق بويرتو في سلسلة من الدراسات، منها كتابه "ابن رشد: الفيلسوف في المجتمع (Averroes: el filósofo en la sociedad)" (الصادر عام 2012)، كيف أن صراع ابن رشد مع الفقهاء والسلطة الموحدية كان تعبيرًا عن صراع أوسع حول السلطة الثقافية والدينية في المجتمع الأندلسي.³⁸ تناول بويرتو بالتحليل العلاقة المعقدة بين ابن رشد والسلطة الموحدية، موضحًا أن محاكمته ونفيه لم تكن مجرد قضية فردية، بل كانت جزءًا من صراع بين تيارات فكرية وسياسية متباينة حول دور الفلسفة في المجتمع الإسلامي.

شارك بويرتو في مشاريع بحثية دولية حول التراث الرشدي، من أبرزها مشروع "ابن رشد الأوروبي" الذي جمع باحثين من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا لدراسة تأثير ابن رشد في الفكر الأوروبي. كما كان له دور كبير في تحقيق ونشر أعمال ابن رشد وابن طفيل وابن باجة، وفي تطوير مناهج تدريس الفلسفة العربية في الجامعات الإسبانية.³⁹

إينيس مونتيرو – (Inés Montero) التاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا:

تُعد إينيس مونتيرو (1972-) واحدة من أبرز المؤرخات الإسبانيات في مجال التاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا التاريخية للأندلس، وأكثر من أسهمت في تطبيق مناهج الأنثروبولوجيا الثقافية على دراسة المجتمع الأندلسي. درست مونتيرو في جامعة مدريد المستقلة، وحصلت على الدكتوراه عام 2002 بأطروحة حول "المجتمع الأندلسي في عصر الطوائف: دراسة أنثروبولوجية".⁴⁰ عملت أستاذة للتاريخ الإسلامي في جامعة مدريد المستقلة، وكانت شخصية محورية في تطوير الدراسات الأنثروبولوجية للأندلس، التي تهدف إلى فهم البنى الثقافية والذهنية العميقة التي شكلت المجتمع الأندلسي.

يُكمن الإسهام الأساسي لمونتيرو في تطوير منهج "الأنثروبولوجيا التاريخية" في دراسة الأندلس، الذي يتجاوز التحليل التاريخي التقليدي نحو النظر في البنى الثقافية والذهنية العميقة التي شكلت المجتمع الأندلسي. فقد أظهرت في دراستها الرائدة "الأنثروبولوجيا التاريخية للأندلس: دراسة في البنى الثقافية (Antropología histórica de al-Andalus: estudio de las estructuras culturales)" عام 2007، أن المجتمع الأندلسي لا يمكن فهمه من خلال التحليل السياسي والاقتصادي فقط، بل يحتاج إلى فهم للبنى الثقافية والذهنية التي شكلت سلوك الأفراد والجماعات.⁴¹ اعتمدت مونتيرو في هذا العمل على منهج يجمع بين التحليل التاريخي التقليدي، والنظر في مفاهيم الأنثروبولوجيا الثقافية مثل "التمثيلات الاجتماعية" و"الممارسات الثقافية". وقد تناولت بالتحليل مفاهيم أساسية في المجتمع الأندلسي مثل مفهوم الشرف والهوية والانتماء، موضحة كيف تطورت هذه المفاهيم عبر الزمن في تفاعل مع التحولات السياسية والاجتماعية.

من أبرز إسهامات مونتيرو أيضًا دراساتها حول "الذاكرة التاريخية للأندلس في إسبانيا المعاصرة (La memoria histórica de al-Andalus en la España contemporánea)"، حيث تناولت بالتحليل كيف تم استخدام وتوظيف تاريخ الأندلس في الخطابات الإسبانية المعاصرة، من فرانكو إلى الديمقراطية. وقد أظهرت في سلسلة من الدراسات، منها كتابها "الأندلس في الذاكرة الإسبانية: من الاسترداد إلى المصالحة (Al-Andalus en la memoria española: de la reconquista a la reconciliación)" الصادر عام 2015، أن الذاكرة التاريخية للأندلس ظلت محل صراع بين رؤى مختلفة للهوية الإسبانية، وأن التحولات في فهم تاريخ الأندلس ارتبطت بالتحولات السياسية والاجتماعية في إسبانيا المعاصرة.⁴² تناولت مونتيرو بالتحليل الخطابات السياسية والثقافية في إسبانيا منذ عهد فرانكو حتى العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، موضحة كيف استخدمت الأندلس كرمز في صراعات الهوية المختلفة، وكيف تطورت القراءات التاريخية للأندلس من القراءة القومية التقليدية إلى القراءات النقدية التي ترى في الأندلس نموذجًا للتعدد الثقافي.

تعاونت مونتيرو مع باحثين إسبان وعرب في مشاريع بحثية حول "الهوية والذاكرة في المتوسط"، حيث أسهمت في تطوير فهم مقارن لكيفية تشكل الذاكرة التاريخية في مجتمعات المتوسط. كما كان لها دور كبير في تطوير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي في الجامعات الإسبانية، وفي نشر الوعي بأهمية النقد المعرفي للمفاهيم التقليدية في كتابة التاريخ.⁴³

خامسًا: الجيل المعاصر: النقد المعرفي والتحويلات الرقمية

أليخاندرو غارسيا سانخوان – (Alejandro García Sanjuán) ناقد السرديات التقليدية:

يُعد أليخاندرو غارسيا سانخوان (1972-) واحدًا من أبرز المؤرخين الإسبان المعاصرين في مجال الدراسات الأندلسية، وأكثرهم جرأة في نقد السرديات التقليدية والمفاهيم الراسخة. تلقى غارسيا سانخوان تكوينه في جامعة ولبه (Huelva)، وحصل على الدكتوراه عام 2000 بأطروحة حول "الفتح الإسلامي للأندلس: دراسة نقدية للمصادر"⁴⁴. عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعة ولبه، وكان شخصية محورية في تطوير المناهج النقدية في الدراسات الأندلسية الإسبانية، والتي تعيد النظر في المفاهيم الأساسية التي قامت عليها الدراسات الأندلسية لقرون.

يُكمن الإسهام الأساسي لغارسيا سانخوان في نقده الجذري للمفاهيم التقليدية التي هيمنت على الدراسات الأندلسية، وخاصة مفهوم "الاسترداد" (Reconquista) الذي يعتبره نتاجًا أيديولوجيًا وليس مفهومًا تاريخيًا صالحًا للتحليل العلمي. فقد أظهر في دراسته الرائدة "الاسترداد: مفهوم في التاريخ الإسباني" (La Reconquista: un concepto en la historia española) عام 2008، أن مفهوم الاسترداد لم يكن موجودًا في المصادر الأندلسية أو المسيحية في العصور الوسطى بالمعنى الذي استخدم به في العصور الحديثة، وأنه تم صياغته في إطار المشروع القومي الإسباني في القرنين التاسع عشر والعشرين.⁴⁵ اعتمد غارسيا سانخوان في هذا العمل على منهج يجمع بين التحليل النقدي للمصادر التاريخية، والنظر في تاريخ كتابة التاريخ نفسه (تاريخ التأريخ). وقد أظهر من خلال تحليل دقيق للمصادر المسيحية والإسلامية في العصور الوسطى أن مصطلح "استرداد" بمعناه الأيديولوجي الحديث لم يكن موجودًا، وأن القراءة التي تقدم الصراع في الأندلس كصراع ديني مستمر بين الإسلام والمسيحية هي قراءة متأخرة تعكس أولويات العصور الحديثة أكثر مما تعكس واقع العصور الوسطى.

من أبرز إسهامات غارسيا سانخوان أيضًا دراساته حول "الفتح الإسلامي للأندلس-al-Andalus) (La conquista islámica de al-Andalus)، حيث قدم قراءة نقدية للمصادر العربية واللاتينية التي تناولت الفتح، وأظهر أن العديد من الروايات التقليدية عن الفتح هي بناءات لاحقة تعكس تحولات سياسية واجتماعية في القرون التالية. وقد وثق غارسيا سانخوان في سلسلة من الدراسات، منها كتابه "الفتح الإسلامي للأندلس: تاريخ جديد" (La conquista islámica de al-Andalus: una nueva historia) الصادر عام 2017، كيف أن إعادة قراءة المصادر بمنهج نقدي يمكن أن تؤدي إلى فهم جديد لعملية الفتح تتجاوز السرديات التقليدية.⁴⁶ أظهر غارسيا سانخوان أن الروايات العربية عن الفتح الإسلامي للأندلس كُتبت بعد الحدث بفترة طويلة (أكثر من قرن في بعض الحالات)، وأنها كانت تخضع لعملية بناء وانتقاء وإع من قبل المؤرخين اللاحقين لأغراض سياسية وإيديولوجية. وقد قارن بين الروايات العربية المختلفة وبين المصادر اللاتينية المعاصرة، موضِّحًا التناقضات الكبيرة بينها، مما يشير إلى أن الصورة التقليدية للفتح تحتاج إلى مراجعة جذرية.

شارك غارسيا سانخون في مشاريع بحثية دولية حول "النقد المعرفي في الدراسات الإسلامية"، حيث أسهم في تطوير مناهج نقدية جديدة لدراسة التراث الإسلامي في إسبانيا. كما كان له دور كبير في النقاش العام حول الذاكرة التاريخية في إسبانيا، من خلال مقالاته وكتبه التي تتناول كيفية التعامل مع التراث الإسلامي في إسبانيا المعاصرة. تميزت كتاباته بالصرامة الأكاديمية والجرأة الفكرية، مما جعله شخصية محورية في التحولات التي شهدتها الدراسات الأندلسية في العقدين الأخيرين.⁴⁷

خاتمة: التحولات المنهجية والمراجعات المعرفية

من خلال تحليل مسارات المؤرخين الإسبان العشرة الذين تناولوا تاريخ الأندلس بين عامي 1970 و2020، يمكننا رصد تحولات عميقة في المنهج والمحتوى والرؤية. فقد انتقلت الدراسات الأندلسية الإسبانية من مرحلة الهيمنة المطلقة للسردية القومية التي صاغها فرانكو ومينينديث بيدال، إلى مرحلة الانفتاح على مناهج جديدة مستمدة من الأنثروبولوجيا الفرنسية والتاريخ الاجتماعي البريطاني وعلم الآثار الحديث، ثم إلى مرحلة النقد المعرفي الجذري للمفاهيم التقليدية التي قامت عليها هذه الدراسات لقرون.

يمكن تلخيص أبرز التحولات في النقاط التالية:

أولاً: التحول من "إسبانيا المسلمة" إلى "الأندلس". فقد تجاوز المؤرخون الإسبان المعاصرون المصطلح التقليدي الذي كان يهدف إلى دمج تاريخ الأندلس في السردية القومية الإسبانية، إلى استخدام مصطلح "الأندلس" الذي يعترف بخصوصية هذه الحقبة كمجتمع إسلامي له خصائصه المتميزة.

ثانياً: التحول من التاريخ السياسي إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. فقد انتقل التركيز من دراسة الحكام والمعارك إلى دراسة البنى الاجتماعية والاقتصادية والذهنية التي شكلت المجتمع الأندلسي، وذلك بفضل إسهامات رواد مثل مانويلا مارين وبيدرو تشالميتا.

ثالثاً: التحول من الاعتماد على النصوص التاريخية فقط إلى دمج المنهج الأثري والمادي. فقد أحدثت المدرسة الأثرية الإسبانية، ممثلة في خوليو نافارو وباتريشيا كريسين وريكاردو أوردونيث، ثورة في فهمنا للاستيطان والعمارة والاقتصاد الأندلسي.

رابعاً: التحول من دراسة النخب إلى دراسة الفئات المهمشة. فقد أولت دراسات مارلين فيغيروا وإينيس مونتيرو اهتماماً كبيراً للمرأة والمتقنين والجماعات المهمشة في المجتمع الأندلسي، مما قدم صورة أكثر تعقيداً وثراءً للمجتمع الأندلسي.

خامساً: التحول من التأريخ التقليدي إلى النقد المعرفي للمفاهيم. فقد مثل أليخاندر غارسيا سانخون وغيره من المؤرخين المعاصرين مرحلة جديدة من النقد الجذري للمفاهيم التقليدية مثل "الاسترداد" و"الفتح"، مما أعاد فتح النقاش حول كيفية كتابة تاريخ الأندلس في القرن الحادي والعشرين.

لا يمكن فهم هذه التحولات بمعزل عن السياق السياسي والاجتماعي الأوسع في إسبانيا. فقد ارتبطت المراجعات المنهجية والفكرية في الدراسات الأندلسية بالتحول الديمقراطي في إسبانيا بعد فرانكو، وباندماج إسبانيا في الاتحاد الأوروبي، وبإعادة تعريف الهوية الإسبانية في سياق التعدد الثقافي واللغوي. كما ارتبطت بظهور جيل جديد من المؤرخين الإسبان تلقوا تكوينًا أكاديميًا في جامعات أوروبية، وانفتحوا على مناهج جديدة من خارج التقاليد الإسبانية التقليدية. غير أن هذا التحول لم يكن خاليًا من التوترات والصراعات. فقد واجه المؤرخون الذين تبنا مناهج نقدية اتهامات من التيارات المحافظة في إسبانيا بـ"تخريب" التاريخ الإسباني و"تمجيد" الفتح الإسلامي. وقد تجسدت هذه التوترات في الجدل العام حول قانون الذاكرة التاريخية، وحول مكانة التراث الإسلامي في التعليم والثقافة الإسبانية. ومع ذلك، استمرت الدراسات الأندلسية الإسبانية في تطورها، وأصبحت اليوم تشكل أحد أكثر الحقول الأكاديمية تقدمًا في أوروبا من حيث المنهج والنتائج.

في الختام، يمكن القول إن المؤرخين الإسبان العشرة الذين تناولنا نماذجهم في هذا المقال مثلوا محطات رئيسية في تطور الدراسات الأندلسية خلال نصف القرن الماضي. لقد أسهم كل منهم، من موقعه المنهجي والفكري، في تحويل فهمنا للأندلس من مجرد "فصل" في التاريخ الإسباني إلى موضوع معقد للدراسة التاريخية المتخصصة. وما زالت الدراسات الأندلسية الإسبانية تتطور اليوم، مع ظهور أجيال جديدة من المؤرخين تستخدم مناهج رقمية وتقنيات جديدة في التحليل، وتفتح آفاقًا جديدة لفهم هذه الحقبة الحورية في تاريخ إسبانيا والعالم الإسلامي.

الهوامش:

- ¹ García Sanjuán, La Reconquista: un concepto en la historia española (Huelva: Universidad de Huelva, 2008, pp.87-112.
- ² Manuela Marín, "Los estudios árabes en España: evolución y perspectivas," Al-Qantara 20, no. 2 (1999): pp.471-473.
- ³ Ramón Menéndez Pidal, Historia de España, vol. 4 (Madrid: Espasa-Calpe, 1950), pp.12-15.
- ⁴ Marín, "Los estudios árabes en España," pp.473-475.
- ⁵ Pedro Chalmeta, "La historiografía andalusí en España: del franquismo a la democracia," in La historiografía española en el siglo XX (Madrid: CSIC, 2002), pp.235-248.
- ⁶ Jorge Liró Ruiz y Fermín Galán Marcos, eds., Biblioteca de al-Andalus, 8 vols. (Almería: Fundación Ibn Tufayl, 1999-2010)1؛ pp.7-12.
- ⁷ Manuela Marín, "Formación y trayectoria intelectual," Al-Qantara 41, no. 1 (2020): pp.5-7.
- ⁸ Manuela Marín, Ulemas andalusíes y la ciencia del hadiz (Madrid: CSIC, 1980) الفصل الثالث.
- ⁹ Manuela Marín, Randell Collins, y Randa Gay, eds., Mujer en al-Andalus (Madrid: CSIC, 1991) المقدمة.
- ¹⁰ Manuela Marín, Vidas de santos en al-Andalus (Madrid: CSIC, 1994) المقدمة.
- ¹¹ Marín, "Los estudios árabes en España," pp.475-478.
- ¹² Pedro Chalmeta, "Pedro Chalmeta Gendrán: memoria académica," Estudios Árabes 15 (2022): pp.9-12.
- ¹³ Pedro Chalmeta, Introducción al estudio de la economía andalusí (Madrid: CSIC, 1971) الفصل الأول.
- ¹⁴ Pedro Chalmeta, Sociedad de al-Andalus: estructura y génesis (Barcelona: Editorial Crítica, 1985) المقدمة.

- ¹⁵ Chalmeta, "La historiografía andalusí en España," pp.240-243.
- ¹⁶ María Jesús Viguera, "Trayectoria investigadora," *Al-Qantara* 39, no. 2 (2018): pp.8-10.
- ¹⁷ María Jesús Viguera, *Al-Andalus: de la conquista a la caída de Granada* (Madrid: Editorial Mapfre, 1986) المقدمة.
- ¹⁸ María Jesús Viguera, "La Biblioteca de al-Andalus: un proyecto museológico," in *El legado andalusí* (Granada: Fundación El Legado Andalusí, 2002) 72-67 .
- ¹⁹ María Jesús Viguera, *Aragón y al-Andalus* (Zaragoza: Universidad de Zaragoza, 1991) المقدمة.
- ²⁰ Julio Navarro Palazón, "La arqueología islámica en España," *Arqueología y Territorio Medieval* 25 (2018): pp.11-14.
- ²¹ Julio Navarro Palazón, *Murcia islámica: una ciudad andalusí en la Edad Media* (Murcia: Ayuntamiento de Murcia, 1992) ، المقدمة.
- ²² Julio Navarro Palazón, *Castillos en al-Andalus: de la fortaleza al palacio* (Granada: Universidad de Granada, 2001) المقدمة.
- ²³ Navarro, "La arqueología islámica en España," pp.18-21.
- ²⁴ Patricia Cressin, "Arqueología rural en Valencia," *Arqueología y Territorio Medieval* 15 (2008): pp.7-10.
- ²⁵ Patricia Cressin, *El poblamiento rural en la Valencia islámica* (Valencia: Universitat de València, 1991) المقدمة.
- ²⁶ Patricia Cressin, *Agua y poblamiento en al-Andalus* (Valencia: Universitat de València, 2000) المقدمة.
- ²⁷ Cressin, "Arqueología rural en Valencia," pp.12-15.
- ²⁸ Ricardo Ordóñez Fernández, "Arquitectura y arte islámico," *Cuadernos de Arte* 32 (2018): pp.5-8.
- ²⁹ Ricardo Ordóñez Fernández, *Arquitectura almohade en al-Andalus* (Granada: Universidad de Granada, 1997) المقدمة.
- ³⁰ Ricardo Ordóñez Fernández, *Geometría y belleza en el arte andalusí* (Granada: Universidad de Granada, 2005) المقدمة.
- ³¹ Ordóñez, "Arquitectura y arte islámico," pp.10-13.
- ³² Marlín Figueroa, "Historia cultural de al-Andalus," *Revista de Estudios Árabes* 28 (2018): pp.6-9.
- ³³ Marlín Figueroa, *Intelectuales en al-Andalus: el papel de la élite cultural en la sociedad andalusí* (Sevilla: Universidad de Sevilla, 1999) المقدمة.
- ³⁴ Marlín Figueroa, *La voz de la mujer en la literatura andalusí* (Sevilla: Universidad de Sevilla, 2008) المقدمة.
- ³⁵ Figueroa, "Historia cultural de al-Andalus," pp.11-14.
- ³⁶ José Miguel Puerto Iglesias, "Filosofía andalusí," *Revista de Filosofía* 45 (2019): pp.7-10.
- ³⁷ José Miguel Puerto Iglesias, *La filosofía en al-Andalus: de Ibn Masarra a Ibn Rushd* (Córdoba: Universidad de Córdoba, 2003) المقدمة.
- ³⁸ José Miguel Puerto Iglesias, *Averroes: el filósofo en la sociedad* (Córdoba: Universidad de Córdoba, 2012) المقدمة.
- ³⁹ Puerto, "Filosofía andalusí," pp.13-16.
- ⁴⁰ Inés Montero, "Antropología histórica," *Revista de Historia* 52 (2019): pp.5-8.
- ⁴¹ Inés Montero, *Antropología histórica de al-Andalus: estudio de las estructuras culturales* (Madrid: Universidad Autónoma de Madrid, 2007) المقدمة.
- ⁴² Inés Montero, *Al-Andalus en la memoria española: de la Reconquista a la reconciliación* (Madrid: Editorial Síntesis, 2015) المقدمة.
- ⁴³ Montero, "Antropología histórica," pp.11-14.

⁴⁴ Alejandro García Sanjuán, "Crítica historiográfica," *Studia Historica* 38 (2020): pp.7-10.

⁴⁵ García Sanjuán, *La Reconquista*, المقدمة.

⁴⁶ Alejandro García Sanjuán, *La conquista islámica de al-Andalus: una nueva historia* (Huelva: Universidad de Huelva, 2017)، المقدمة.

⁴⁷ García Sanjuán, "Crítica historiográfica," pp.13-16.